



خطبة صلاة الجمعة 18/10/2013 للشيخ الطبيب محمّد خير الشّعال, في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

"حسن الخاتمة"

الحمد لله، الحمد لله ثمّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلّ فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيّدنا محمّداً عبده ورسوله، وصفيّه وخليته، خير نبيّ اجتبا، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّ ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كرهه، اللهم صلّ على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم.

أمّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإيائي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

يقول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ , [سورة إبراهيم: 27].

سأل سيّدنا يوسف عليه السلام ربه حسن الختام فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ , [سورة يوسف: 101].

وقال ربنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ , [سورة فصلت: 30].

تتابع حرف التاء في تنزل يشير إلى تكرار التنزل عليهم، قَالَ وَكَيْعُ وَابْنُ زَيْدٍ: تنزل عليهم الملائكة بالبشرى في ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ: عِنْدَ الْمَوْتِ، وَفِي الْقَبْرِ، وَعِنْدَ الْبُعْثِ.
عن سالم أن ابن عمر كان يقول للرجل إذا أراد سفراً: اذْنُ مَنِّي أُوَدِّعُكَ كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يودِّعنا، فيقول: «أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ»، [أخرجه الترمذي].

وقال صلى الله عليه وسلم: «صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السَّوْءِ»، [أخرجه الحاكم].
ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمة أبي الوقت السجزي قال: عالمٌ مُحَدَّث، كان صالحاً كثير الذكر والتهجد والبكاء من خشية الله تعالى، يقول تلميذه: لما احتَضِرَ أَسْنَدَتْهُ إلى صدري، وكان مولعاً بالذكر، فدخل عليه أحدُ أصحابه يا سيدي قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ»، [أخرجه أبو داود]، فرفع طَرْفَهُ إليه وتلا: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾، [سورة يس: 26، 27]، فدهش إليه هو ومن حضر من الأصحاب، ولم يزل يقرأ حتى ختم السورة وقال: الله، الله، الله حتى طُفِيَءَ.
أُصِيبَ شابٌ بطلقٍ نارية عن طريق الخطأ، فأسرع به والداه إلى المستشفى بالرياض، وفي الطريق التفت إليهما الشاب وقال: لا تخافا!! فإني ميت، إني أشم رائحة الجنة ثم نطق بالشهادتين!! ومات.
ولما سُئِلَ عنه والده قال: كان غالباً ما يقوم الليل فيصلي ما كتب الله له، وكان يوقظ أهل البيت ليشهدوا الصلاة⁽¹⁾.

روى ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين، أن مالك بن دينار قال: دخلت على جارٍ لي وهو مريض فقلت: "يا فلان، عاهد الله أن تتوب عسى أن يشفيك"، قال: يا أبا يحيى هيهات، أنا ميت، ذهبْتُ أعاهد كما كنتُ أعاهد، فسمعتُ قائلاً يقول من ناحية البيت: "عاهدناك مراراً فوجدناك كذوباً".

وقع حادث سيرٍ شديد على واحدٍ من الطرق السريعة، فوقفت سيارةٌ عابرةٌ لتشاهد سيارة الحادثة معجونة أجزاؤها إلى بعضها البعض، يقودها شابٌ ملأت الدماء وجهه وأطرافه، اتصل

⁽¹⁾ (?) من كتاب: "قصص واقعية"، للدكتور خالد الجبير.

المسعف بإسعاف الطرق، ثم اقترب من الشاب يحاول إنقاذه فوجده كأنه يريد أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.

يقول: فوق لي أن أذكره بنطق الشهادة، فجعلت أقول قريباً من أذنه: "أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله"، ففاجئني بأن ردّد مقطعاً من أغنية ماجنة تُغنى في الشوارع، ثم مات. فرق كبيرٌ أيها الإخوة بين من يموت على هذه الحال ومن يموت وهو يقرأ آي القرآن، أو يترنم بذكر ربه، أو ينظر إلى ملائكة الرحمة تقبضه...

عنوان الخطبة: "حسن الخاتمة"

حسن الخاتمة: أن يُوفّق العبد قبل موته لعمل الصالحات والطاعات فيموت عليها. وضدها، سوء الخاتمة: وهي أن تكون وفاة الإنسان وهو مُعرّض عن ربه، يفعل المعاصي والموبقات فيموت عليها.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَغْمَلَهُ»، قيل: كَيْفَ يَسْتَغْمَلُهُ؟ قال: «يُؤَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ موته، ثم يقبضه عليه»، [أخرجه الترمذي].

أسبابُ حسن الخاتمة أربعة:

أولها: الابتعاد عن المحرمات:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْدَ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، [سورة البقرة: 229].

وقال صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَسْرَعَ مِنْ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ عِقَابَهُ مِنَ الْبَغْيِ، وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»، [أخرجه الترمذي].

ذكر ابن القيم في الجواب الكافي أنه قيل لرجل عند الموت قل: "لا إله إلا الله"، فقال: "عشرةٌ بأحد عشر"، -وكان مرايياً-.

وذكر أيضاً: عن رجل عرف بحبه للأغاني وترديدتها، فلما حضرته الوفاة قيل له: قل: "لا إله إلا الله"، فجعل يهذي بالغناء ويقول: "تاتنا تاتنا..."، حتى قضى ولم ينطق بالتوحيد.

وذكر الذهبي في كتاب الكبائر أن رجلاً كان يجالس شرَّاب الخمر، فلما حضرته الوفاة جاءه إنسان يلقيه الشهادة فقال له: "اشرب واسقني"، ثم مات.

الثاني: المحافظة على الواجبات:

كالنفقة على الزوجة والأبناء، وبر الوالدين، والصلاة والصيام ...
قال صلى الله عليه وسلم: «**ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ من أداء ما افترضت عليه**»، [أخرجه البخاري].

أما من ترك الفرائض والواجبات وتحاول فيها فإنه يُخشى عليه من سوء الخاتمة.
ذكر ابن القيم -رحمه الله- في كتابه "الجواب الكافي"، أن أحد الناس قيل له وهو في سياق الموت: "قل: لا إله إلا الله"، فقال: "وما يغني عني وما أعرف أنني صليت لله صلاة؟!"، ثم قضى ولم يقلها.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾، [سورة طه: 124].

الثالث: المداومة على المستحبات:

قال تعالى: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، [سورة الأنعام: 48].
وقال ﷺ: «**صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السَّوْءِ**»، [رواه الحاكم]، ومعلوم لديكم أن المرء يموت على ما عاش عليه.

جاء في سير أعلام النبلاء: لما أُحضِر عبد الرحمن بن الأسود بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: "أسفاً على الصلاة والصوم"، ولم يزل يتلو القرآن حتى مات.
وفي صفة الصفوة: عن هشام بن عروة قال: كان أبي كثير الصوم، ولقد مات يوم مات وهو صائم.

وأعرف رجلاً فاضلاً قُطعت يده فصاحبته الآلام والأوجاع طيلة حياته وبقي صابراً محتسباً، وقد أنعم الله عليه بحفظ القرآن، فكان يُقرِّأ القرآن يعلمه الناس، حتى كان جلُّ وقته يقضيه في

تعليم كتاب الله، طال مجلس الإقراء به يوماً من بعد صلاة الفجر إلى صلاة الظهر، فلما حضرت صلاة الظهر صلى مع الإمام، فلما جلس للتشهد الأخير وقرأ التحيات لله فاضت روحه إلى بارئها عز وجل.

وعكسه من اشتغل بديناه ونسي الفرائض والمستحبات، فإنه يُخشى عليه سوء الخاتمة، قال ابن القيم: أخبرني بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده، وجعلوا يلقنونه لا إله إلا الله، وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، وهذا مشتر جيد، هذه كذا حتى قضى.

الرابع الأخير: الدعاء وحسن الظن بالله:

عن أمير المؤمنين عُمَر رضي الله عنه قال: "اللَّهُمَّ ارزُقني شهادة في سَبِيلِكَ، واجعل موتي في بلدِ رسولك"، قالت حفصة: فقلت: "أَتَى يكون هذا؟"، قال: "يَأْتِينِي به الله إِذَا شاء"، [أخرجه البخاري].

وذكر رزين: كان جُلُّ دعاءِ عمر: "اللَّهُمَّ ارزُقني شَهَادَةً في سَبِيلِكَ".

فكان أن كتب الله له الشهادة في المدينة المنورة كما تعلمون.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يقول الله تعالى: أنا عند حسن ظن عبدي بي**»، [أخرجه البخاري ومسلم].

ومن هنا كان الإمام سفيان الثوري يقول: "ما أحب أن حسابي جُعل إلى والدتي، ربي خير لي من والدتي".

عن إدريس بن عبد الله المروزي قال: "مرض أعرابي، فقيل له: "إنك تموت"، قال: "إلى أين يذهب بي؟" قال: "إلى الله"، قال: "فما كراحتي أن أذهب إلى من لا أرى الخير إلا منه؟".

أيها الإخوة:

أربعة أسباب لخاتمة حُسنَى -نسأل الله تعالى حسن الختام لنا ولكم-:

1. الابتعاد عن المحرمات.

2. المحافظة على الواجبات.

3. المداومة على المستحبات.

4. الدعاء وحسن الظن بالله.

والحمد لله رب العالمين